الفصل الثالث

المناسبة والتناسب في وجوه النظم وبناء الجملة

المبحث الأول

التناسب في وجوه الاستفهام

الاستفهام: لغةً: عرّفه ابن منظور بقوله: «معرفتك الشيء بالقلب، وفهمت الشيء: عقلته وعرفته، وأفهمه الأمر وفهّمه إياه: جعله يفهمه، واستفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً»[1].

والاستفهام اصطلاحاً: هو طلب العلم بالشيء المجهول وهو من صيغ الإنشاء الطلبي. وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل وذلك بإحدى أداة من أدواته.

وقال السكاكي: «والاستفهام طلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إمّا أن يكون حكماً بشيء على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور ولا يمتنع انفكاكه من التصديق»[2].

وللاستفهام ألفاظ موضوعة له[3] وهي (الهمزة)، و(هل)، و(ما)، و(من)، و(أي)، و(لم)، و(كيف)، و(أين)، و(أنى)، و(متى)، و(أيَّان).

وقد يخرج الاستفهام مجازياً إلى أغراض بلاغية تعرف من سياق الكلام

---

(١) لسان العرب، مادة (فهم)؛ وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١/١٨١.

(٢) مفتاح العلوم: ١٤٦.

(٣) ينظر: الإيضاح: ١/٢٢٨.

وقرائن الألفاظ قال القزويني: «ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معاني غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام»[1].

وقد يخرج الاستفهام إلى معاني كثيرة، يتناسب كلّ معنى مع المقام الذي جاء فيه، ولا يمكننا الإحاطة فيها، لتباينها بين الوضوح والخفاء، فنراها أحياناً «تجري في النفس جرياناً خفيّاً تحسها، ولا تستطيع وصفها»[2].

وقد يكون للاستفهام الواحد أكثر من معنى، ويقرر البلاغيون أنّ النكات البلاغية لا تتزاحم.

وهناك أنواعاً كثيرة لخروج الاستفهام مجازيّاً هي:

١- الاستفهام للتعجب:

لقد ورد هذا النوع في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[3]، قال السمين الحلبي: «قوله: (ما أكفره) إمّا تعجب وإمّا استفهام تعجيب»[4].

وذهب أغلب العلماء إلى معنى التعجب، ومنهم: أبو السعود، والبغوي والزمخشري[5].

وقال ابن عطية: «ما أكفره: يحتمل معناه التعجب ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً أي: أي شيء أكفره. أي: جعله كافراً»[6].

---

(١) الإيضاح: ٢٣٤/١.

(٢) دلالات التركيب: ٢١٦.

(٣) سورة عبس، الآية: ١٧.

(٤) الدر المصون: ٤٨٠/٦.

(٥) ينظر: معاني القرآن، الفراء: ١٨٥/٥؛ والكشاف: ٧٠٣/٤؛ وإرشاد العقل السليم: ١١٠/٩؛ ومعالم التنزيل: ٣٣٧/٨؛ والكشف والبيان: ١٣٢/١٠.

(٦) المحرر الوجيز: ٤١١/٥.

وتبعه أبو حيان[1] وقد أصبح هذا القسم في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾[2]. قال الزمخشري: الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم ويحتمل التعجب والاستفهام الحقيقي ما ولاهم عن قبلتهم.

٢- الاستفهام للتنبيه:

وهو من أقسام الأمر[3]. كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[4]. قال الشيخ رشيد: «وهنا الاستفهام تمهيد لما بعده، يتضمن تنبيهاً وإيقاظاً لما سيريه من العجائب المخالف لطبيعتها التي هي عليها، والتي يعلمها منها عليه السلام ممّا عدده لها»[5].

وقال الخازن: «سؤال تقريع والحكمة فيه تنبيهه على إنّها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة»[6].

وقال أبي السعود في تفسيره: «فالاستفهام إيقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ما سيبدو له من التعاجيب»[7].

٣- الاستفهام للتعظيم:

منها قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾[8]. قال السمين

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ٨/٤٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٣) معجم المصطلحات البلاغية.

(٤) سورة طه، الآية: ٧.

(٥) أولى ما قيل: ٦/٥٩.

(٦) لباب التأويل: ٤/٢٦٦.

(٧) إرشاد العقل السليم: ٦/٩.

(٨) سورة الواقعة، الآية: ٨.

الحلبي في تفسيره للآية: «أصحاب الأولى مسنداً و(ما) استفهام فيه تعظيم مبتدأ ثان»[1] وهذا رأي ابن عطية والرازي[2].

وقد ذهب أغلب العلماء إلى أنّ الاستفهام بمعنى التعجب، قال البيضاوي: «والجملتان الاستفهاميتان خبران لما قبلهما بإقامة الظاهر مقام الضمير ومعناهما التعجب من حال الفريقين»[3].

وذهب ابن عادل إلى معنى التفخيم والتعجب[4].

٤- الاستفهام التقريري:

هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده[5]. نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[6]. قال السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾: هذا استفهام معناه التقرير»[7]، وقال أبو حيان أيضاً: «هذا أيضاً استفهام دخل على النفي فهو تقرير، فليس له معادل، لأنّ التقرير معناه: الإيجاب، أي: قد علمت أيها المخاطب أنّ الله له سلطان السماوات والأرض والاستيلاء عليهما، فهو يملك أموركم ويدبرها، ويجريها على ما يختاره لكم من النسخ وغيره»[8]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

---

(١) الدر المصون: ٢٥٣/٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ١٥٨/١؛ والتفسير الكبير: ١٢٧/٢٩.

(٣) أنوار التنزيل: ٢٨٤/٥.

(٤) ينظر: اللباب: ٣٧٧/١٨.

(٥) معجم المصطلحات البلاغية: ١٩٠/١.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ١٠٧.

(٧) الدر المصون: ٣٣٨/١.

(٨) البحر المحيط: ٥١٥/١.

بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ ﴾[1]، قال الشيخ رشيد: «... وقد قرر التثبيت بهذا الاستفهام التقريري فقال: (أتصبرون) على ذلك الابتلاء: يحملهم بهذا الاستفهام على الصبر والثبات»[2]. وإنّ غرض الاستفهام في هذه الآية هو الحث والأمر ذكره ابن عاشور[3]. وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ ﴾[4]، قال السمين الحلبي: «والهمزة هنا للتقرير، لأنّ الاستفهام إذا دخل على النفي قرره كقوله:

ألستم خير من ركب المطايـــا وأندى العالمين بُطُـــون راحِ[5]

المعنى: أنتم خيرُ»[6].

ومنه مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ﴾[7]، قال الشيخ رشيد: «والاستفهام للتقرير، والمعنى: أنّ الله سبحانه جعل كيدهم فاشلاً خائباً»[8]، وقد أكثر الشيخ رشيد الخطيب من ذكر هذا النوع في تفسيره[9].

٥- الاستفهام الإنكاري:

يخرج الاستفهام إلى معنى الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ

---

(١) سورة الفرقان، من الآية: ٢٠.

(٢) أولى ما قيل: ٦/٢٠٤.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩/٣١.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٦٠.

(٥) البيت لجرير، وهو في ديوانه: ٨٩.

(٦) الدر المصون: ١/٦٣٠.

(٧) سورة الفيل، الآية: ٢.

(٨) أولى ما قيل: ٩/٢٥١.

(٩) المصدر السابق: ٤/١٧، و٧/٤٨، و٩/١٢٩، و٩/٢١٥.

﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾[1]، قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ استفهام إنكار»[2] وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾[3]، قال الشيخ رشيد: «واختار الأستاذ الإمام أنّ ﴿أَمۡ﴾ في أول الكلام تكون للاستفهام. وهو هنا للإنكار. والمعنى: أيقولون إنّ محمداً افترى هذا الكلام»[4]. وهذا ما ذهب إليه الآلوسي وابن عاشور[5]، وقال أبو السعود: «الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجيب»[6]، وذهب الشوكاني إلى أن «الاستفهام للتوبيخ والتقريع»[7].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾[8]. قال أبو حيان: «وهمزة الاستفهام والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ والإنكار، فلا يقتضي جواباً؛ لأنه في معنى (كيف وقع حسبان ذلك؟)[9]، ثم جاء الآلوسي قائلاً: «والظاهر أنّ (أم) منقطعة، بمعنى دل التي للإضراب بمعنى الانتقال من إنكار حسبان عدم الفتن لمجرد الإيمان إلى إنكار

---

(١) سورة النمل، الآية: ٣٦.
(٢) الدر المصون: ٣١٣/٥.
(٣) سورة هود، من الآية: ١٣.
(٤) أولى ما قيل: ٢٢٧/٤؛ وينظر: تفسير المنار: ٢٣٨/٧.
(٥) ينظر: روح المعاني: ٢٠/١٢؛ والتحرير والتنوير: ٢١٨/١١.
(٦) إرشاد الفعل السليم: ١٩١/٤.
(٧) فتح القدير: ٧٠٢/٢.
(٨) سورة العنكبوت، الآية: ٤.
(٩) البحر المحيط: ١٣٦/٧.

حسبان عدم المجازاة على عمل السيئات»[1]، وأكد ابن عاشور أنّ: «(أم) للإضراب الانتقالي، ويقدر بعدها استفهام إنكاري»[2].

٦- الاستفهام للتثبيت:

جاء في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[3]، قال الشيخ رشيد: «وهذا الاستفهام من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين»[4].

وقد ذكر أغلب المفسرين أنّ الاستفهام هنا في معنى الأمر[5]. وذهب بعضهم أنه مستعمل في الحث على الفعل وعدم تأخيره[6].

٧- الاستفهام للنفي:

نحو قوله تعالى: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[7]. قال السمين الحلبي: «قوله: (هل يهلك) هذا استفهام بمعنى النفي، ولذلك دخلت «إلاّ» وهو استثناء مفرغ، والتقدير: ما يهلك إلاّ القوم الظالمون»[8].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[9]، قال السمين

---

(١) روح المعاني: ١٣٦/٢٠.

(٢) التحرير والتنوير: م١٠-٢٠٦/٢٠.

(٣) سورة هود، من الآية: ١٤.

(٤) أولى ما قيل: ٢٢٨/٤.

(٥) ينظر: الوجيز: ٥١٥/١؛ ولباب التأويل: ٢٢٢/٣؛ والكشف والبيان: ١٦٠/٥.

(٦) ينظر: نظم الدر: ٥١٤/٣؛ والتحرير والتنوير: ٢٢٠/١١.

(٧) سورة الأنعام، من الآية: ٤٧.

(٨) الدر المصون: ٦٧/٣.

(٩) سورة آل عمران، من الآية: ١٣.

الحلبي: «وقوله: (من يغفر) استفهام معناه النفي، ولذلك وقع بعده الاستثناء»[1].
وهذا ما ذهب إليه الزجاج، والبيضاوي[2].

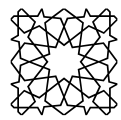

(١) الدر المصون: ٢/٢١١.

(٢) ينظر: إعراب القرآن: ١/١٩٩؛ وأنوار التنزيل: ٢/٩٣.